يعنى : ما يأتى فى هذه السورة آيات الكتاب المبين .

﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾

أى : نقص عليك ﴿ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ .. ﴿٣﴾ ﴾ [القصص] والنبأ : الخبر الهام الذى يجب الالتفات إليه ، وهل هناك أهم من إرسال موسى - عليه السلام - إلى مَن ادعى الألوهية ؟ لذلك أفرد لهما هذه السورة ، فلم يَردْ فيها ذكْر آخر إلا لقارون ؛ لأنها تعالج مسألة القمة ، مسألة التوحيد ، وتردّ علىَ مَن ادّعى الألوهية ، ونازع الله تعالى فى صفاته .

وقوله ﴿ بِالْحَقِّ .. ﴿٣﴾ ﴾ [القصص] لأن تلاوته وقصصه حق ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [آل عمران]

والقصص مأخوذ من قصِّ الأثر وتتبّعه ، وقد اشتُهر به بعض العرب قديماً ، ومهروا فيه حتى إنهم ليعرفون أثر الرجل من أثر المرأة .. إلخ ، وقد اشتُهرت عندهم قصة الرجل الذى فقد جمله ، وقابل أحد القصاصين ، وسأله عنه فقال : جملك أبتر[1] الذَّنَب ؟ قال : نعم ، قال : أعور ؟ قال : نعم ، قال : أعرج ؟ عندها لم يشكّ صاحب الجمل أن هذا الرجل هو الذى أخذ جمله ، فأمسك به وقاضاه .

وفى مجلس القضاء ، قال الرجل : والله ما أخذتُ جملك ، لكنى رأيتُ الجمل يبعثر بَعْره خلفه ، أما هذا فيضع بَعْره مرة واحدة ،

---

(١) الأبتر : المقطوع الذَّنَب (الذيل) من أى موضع كان من جميع الدواب . والبتر : استئصال الشيء قطعاً . [لسان العرب - مادة : بتر] .

فـعرفـتُ أنه مقطوع الـذنب ، ورأيت أحد أخـفـافـه لا يؤثر فى الرمل فعرفتُ أنه أعـرج ، ورأيته يأكل من ناحية ويترك الأخـرى فعرفتُ أنه أعور .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ حين يقصُّ علينا يقصُّ الواقع ، فقَصص القرآن لا يعرف الخيال كقصص البشر ؛ لذلك يسميه القصص الحق ، وأحسن القصص ، لأنه يروى الواقع طِبْق الأصل .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي(1) نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾

معنى ﴿ عَلا .. (٤) ﴾ [القصص] من العلو أى : استعلى ، والمستعلَى عليه هم رعيته ، بل علا على وزرائه والخاصة من رعيته ، وعلا حتى على الله ـ عز وجل ـ فادَّعى الألوهية ، وهذا منتهى الاستعلاء ، ومنتهى الطغيان والتكبُّر ، وما دامت عنده هذه الصفات وهو بشر وله هوىً فلا بُدَّ أنْ يستخدمها فى إذلال رعيته .

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا .. (٤) ﴾ [القصص] جمع شيعة ، وهى الطائفة التى لها استقلالها الخاص ، والمفروض فى المُملَّك أنْ يُسوِّى بين رعيته ، فلا تأخذ طبقة أو جماعة حظوة عن الأخرى ، أما فرعون فقد جعل الناس طوائف ، ثم يسلِّط بعضها على بعض ، ويُسخِّر بعضها لبعض .

---

(1) استحياه : استبقاه حياً ولم يقتله . ومعنى ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. (٤٩) ﴾ [البقرة] أى : أنهم يقتلون الذكور فقط ويتركون البنات والنساء على قيد الحياة . [القاموس القويم ١/١٨٣] .

ولا شكَّ أن جَعْل الأمة الواحدة عدة طوائف له ملْحظ عند الفاعل ، فمن مصلحته أن يزرع الخلاف بين هذه الطوائف ويشغل بعضها ببعض ، فلا تستقر بينهم الأمور ، ولا يتفرغون للتفكير فيما يقلقه ويهزّ عرشه من تحته ، فيظل هو مطلوباً من الجميع .

والقبط كانوا هم سكان مصر والجنس الأساسى بها ، ثم لما جاءها يوسف ـ عليه السلام ـ واستقرَّ به الأمر حتى صار على خزائنها ، ثم جاء إخوته لأخْذ أقواتهم من مصر ، ثم استقروا بها وتناسلوا إلا أنهم احتفظوا بهويتهم فلم يذوبوا فى المجتمع القبطى .

وبالمناسبة يخطىء الكثيرون فيظنون أن القبطىَّ يعنى النصرانى وهذا خطأ ، فالقبطى يعنى المصرى كجنس أساسى فى مصر ، لكن لما استعمرت الدولةُ الرومانية مصرَ كان مع قدوم المسيحية فأطلقوا على القبطى (مسيحى) .

لكن ، ما السبب فى أن فرعون جعل الناس طوائف ، تستعبد كلٌّ منها الأخرى ؟ قالوا : لأن بنى إسرائيل كانوا فى خدمة المستعمر الذى أزاح حكم الفراعنة ، وهم ملوك الرعاة ، فلما طُرِد ملوك الرعاة من مصر كان طبيعياً فيمَنْ يحكم مصر أن يضطهد بنى إسرائيل ؛ لأنهم كانوا موالين لأعدائه ، ويسيرون فى ركابهم ، ومن هنا جاء اضطهاد فرعون لبنى إسرائيل .

والقرآن الكريم حينما يتحدث عن ملوك مصر فى القديم وفى الحديث يُسمِّيهم فراعنة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر]

وهنا في قصة موسى - عليه السلام - قال أيضاً : فرعون . أما في قصة يوسف عليه السلام فلم يأت ذكْر للفراعنة ، إنما قال ﴿الْمَلِكُ .. ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف] وهذه من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم ؛ لأن الحكم في مصر أيام يوسف كان لملوك الرعاة ، ولم يكُنْ للفراعنة ، حيث كانوا يحكمون مصر قبله وبعده لما استردوا مُلْكهم من ملوك الرُّعاة ؛ لذلك في عهد يوسف بالذات قال ﴿الْمَلِكُ .. ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف] فلم يكُنْ للفرعون وجود في عصر يوسف .

فمعنى ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ .. ﴿٤﴾﴾ [القصص] يعني : تستبد طائفة الأقباط ، وهم سكان مصر الأصليون بطائفة بني إسرائيل لينتقموا منهم جزاءَ موالاتهم لأعدائهم .

وأول دليل على بطلان ألوهية فرعون أن يجعل أمته شيَعاً ، لأن المألوهين ينبغي أن يكونوا جميعاً عند الإله سواء ؛ لذلك يقول تعالى في الحديث عن موكب النبوات : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام]

ذلك لأن دين الله واحد ، وأوامره واحدة للجميع ، فلو كنتم مُتمسكين بالدين الحق لجعلتُم الناس جميعاً شيعة واحدة ، لا يكون لبعضهم سلطة زمنية على الآخرين ، فإذا رأيت في الأمة هذه التفرقة وهذا التحزُّب فاعلم أنهم جميعاً مدينون ؛ لأن الإسلام - كما قُلْنا - في صفائه كالماء الذي لا طعمَ له ، ولا لون ، ولا رائحة .

وهذا الماء يحبه الجميع ولا بُدَّ لهم منه لاستبقاء حياتهم ، أما أن نُلوِّن هذا الماء بما نحب ، فأنت تحب البرتقال ، وأنا أحب المانجو ، وهذا يحب الليمون .. إلخ إذن : تدخلتْ الأهواء ، وتفرَّق الدين الذي أراده الله مجتمعاً .

لذلك يقول رسول الله ﷺ : « ستفترق أمتى بضع وستون ، أو بضع وسبعون فرقة ، كلهم فى النار إلا ما أنا عليه وأصحابى »[1] .

فشيعة الإسلام إذن واحدة ، أما أن نرى على الساحة عشرات الفرق والشيع والجماعات ، فأيها يتبع المسلم ؟ إذن : ما داموا قد فرقوا دينهم ، وكانوا شيعاً فلستَ منهم فى شىء .

ثم يُفسِّر الحق سبحانه هذا الاستضعاف ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ .. ④﴾ [القصص] فيقول ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ .. ④﴾ [القصص] وقلنا : إن الإفساد أن تأتى على الصالح بذاته فتفسده ، فمن الفساد - إذن - قتل الذُّكْران واستحياء النساء ؛ لأن حياة الناس لا تقوم إلا باستبقاء النوع ، فقتل الذُّكْران يمنع استبقاء النوع ، واختار قَتْل الذكْران ؛ لأنهم مصدر الشر بالنسبة له ، أمّا النساء فلا شوكة لهُنَّ ، ولا خوفَ منهن ؛ لذلك استبقاهُنَّ للخدمة وللاستذلال .

وحين نتتبع هذه الآية نجد أنها جاءت فى مواضع ثلاثة من كتاب الله ، لكل منها أسلوب خاص ، ففى الآية الأولى يقول تعالى : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. ㊾﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر : ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ .. ⑭①﴾ [الأعراف] وهاتان الآيتان على لسان الحق تبارك وتعالى .

أما الأخرى فحكاية من الله على لسان موسى - عليه السلام - حين يُعدِّد نعَم الله تعالى على بنى إسرائيل ، فيقول :

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « إن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم فى النار إلا ملة واحدة ، قالوا : ومن هى يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى » .

﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ .. ⁽٦⁾ ﴾ [إبراهيم]

فالواو فى ﴿ وَيُذَبِّحُونَ .. ⁽٦⁾ ﴾ [إبراهيم] لم ترد فى الكلام على لسان الله تعالى ، إنما وردتْ فى كلام موسى ؛ لأنه فى موقف تَعداد نعَم الله على قومه وقصده ؛ لأن يُضخِّم نعم الله عليهم ويُذكِّرهم بكل النعم ، فعطف على ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .. ⁽٦⁾ ﴾ [إبراهيم] قوله ﴿ وَيُذَبِّحُونَ .. ⁽٦⁾ ﴾ [إبراهيم]

لكن حين يتكلَّم الله تعالى فلا يمتنُّ إلا بالشيء الأصيل ، وهو قتْل الأولاد واستحياء النساء ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يمتنَّ بالصغيرة ، إنما يمتنُّ بالشيء العظيم ، فتذبيح الأبناء واستحياء النساء هو نفسه سوء العذاب .

وقوله مرة ﴿ يُذَبِّحُونَ .. ⁽٤٩⁾ ﴾ [البقرة] ومرة ﴿ يُقَتِّلُونَ .. ⁽١٤١⁾ ﴾ [الأعراف] لأن قتل الذُّكْران أخذ أكثر من صورة ، فمرَّة يُذبِّحونهم ومرة يخنقونهم .

ومعنى ﴿ يَسُومُونَكُمْ .. ⁽١٤١⁾ ﴾ [الأعراف] من السَّوْم ، وهو أنْ تطلب الماشية المرعى ، فنتركها تطلبه فى الخلاء ، وتلتقط رزقها بنفسها لا نقدمه نحن لها ، وتسمى هذه سائمة ، أما التى نربطها ونُقدِّم لها غذاءها فلا تُسمَّى سائمة .

فالمعنى ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .. ⁽١٤١⁾ ﴾ [الأعراف] يعنى : يطلبون لكم سوء العذاب ، وما داموا كذلك فلا بُدَّ أنْ يتفنَّنوا لكم فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⁽٥⁾ ﴾

فلن يدوم لفرعون هذا الظلم ؛ لأن الله تعالى كتب ألاَّ يفلح ظلُّوم ، وألاَّ يموت ظلوم ، حتى ينتقم للمظلوم منه ، ويُريه فيه عاقبة ظلمه ، حتى إن المظلوم ربما رحم الظالم ، وحَسْبك من حادث بامرىء ترى حاسديه بالأمس ، راحمين له اليوم .

وهنا تُطالعنا غضبة الحق ـ تبارك وتعالى ـ للمؤمنين ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ .. ۝ ﴾ [القصص] والمنة : عطاء مُعوّض ، وبدون مجهود من معطى المنة ، كأنها هبة من الحق سبحانه ، وغضبة لأوليائه وأهل طاعته ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ كما قال الإمام على : إن الله لا يُسلم الحق ، ولكن يتركه ليبلو غَيْرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا عليه غَارَ هو عليه .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يغَارُ على الذين استُضعفوا لا يرفع عنهم الظلم فحسب ، وإنما أيضاً ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً .. ۝ ﴾ [القصص] أئمة فى الدين وفى القيم ، وأئمة فى سياسة الأمور والملك ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ ﴾[القصص] أى : يرثون مَنْ ظلمهم ، ويكونون سادةً عليهم وأئمةً لهم ، فانظر على كم مرحلة تأتى غيرة الله لأهل الحق .

ولولا أن فرعون ـ الذى قوى على المستضعفين وأذلَّهم ـ تأبَّى على الله ورفض الانقياد لشملته رحمة الله ، ولعاشَ هو ورعيته سواء .

لذلك أهل الثورات الذين جاءوا للقضاء على أصحاب الفساد وإنصاف شعوبهم ممَّنْ ظلمهم ، كان عليهم بعد أنْ يقضوا على الفساد ، وبعد أن يمنعوا المفسد أن يُفسد ، ويحققوا العدالة فى المجتمع ، كان عليهم أنْ يضموا الجميع إلَى أحضانهم ورعايتهم ، ويعيش الجميع بعد تعديل الأوضاع سواسية فى مجتمعهم ، وبذلك نأمن الثورة المضادة .

ثم يقول تعالى استكمالاً لمنَّته :

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [القصص] نعرف أن الأرض مكان يحدث فيه الحدَث ، لأنّ كل حَدَث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فالمعنى : نجعل الأرض مكاناً لممكَّن فيها ، والتمكين يعنى : يتصرف فيها تسلطاً ، ويأخذ خيرها .

وقد شرح الحق سبحانه لنا التمكين في عدة مواضع من القرآن ، ففى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يوسف] مكين يعنى : لك عندنا مكانة ومركز ثابت لا ينالك أحد بشيء ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف] يعنى : أعطيناه سلطة يأخذ بها خير المكان ، ثم يُصرِّف هذا الخير للآخرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص] وهامان هو وزير فرعون ، ولابد أنه كان لكل منهما جنود خاصة غير جنود الدولة عامة ، كما نقول الآن : الحرس الجمهورى ، والحرس الملكى ، والجيش .

أو : أن هامان يصنع من باطن فرعون ، فالملك لا يزاول أموره إلا بواسطة وزرائه ، وفى هذه الحالة يأخذ الجنود الأوامر من هامان . أو : أن هامان كان له سلطة ومركز قوة لا تقل أهمية عن سلطة فرعون ، وربما رفع رأسه وتطاول على فرعون فى وقت من الأوقات .

وقد رأينا هذا عندنا في مصر ـ لذلك يقولون في المثل الريفي المعروف : تقول لمن يحاول خداعك (على هامان) ؟ يعني : أنا لا تنطلي عليَّ هذه الحيل .

والضمير في ﴿ مِنْهُم .. ۝ ﴾ [القصص] يعود على المستضعفين ﴿ مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝ ﴾ [القصص] أي : سنريهم الشيء الذي يخافون منه ، والمراد النبوءة التي جاءتهم ، إما عن طريق الكهنة ، أو عن طريق الرُّؤْيا ، حيث رأى فرعون ناراً تأتي من بيت المقدس ، وتتسلط على القِبْط في مصر ، لكنها لا تؤذي بني إسرائيل ، فلما عبَّروا له هذه الرؤيا قال : لا بد أنه سيأتي من هذه البلد من يسلب مني مُلْكي [1] .

ويُرْوى أن الكهنة أخبروه أنه سيُولد في هذه السنة مولود يكون ذهاب مُلْك على يديه .

فسوف يرى فرعون وقومه هذه المسألة بأعينهم ويباشرونها بأنفسهم ، وسيقع هذا الذي يخافون منه ؛ لذلك أمر فرعون بقتْل الذكْران من بني إسرائيل ليحتاط لأمره ، ويُبقي على مُلْكه ، لكن هذا الاحتياط لم يُغنِ عنه شيئاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ٧ ﴾

(١) قاله السدي فيما أخرجه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم ، ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٣٨٩) .

عجيب أمر فرعون، فبعد أن أمر بقتل الأولاد من بنى إسرائيل يأتيه فى البحر تابوت به طفل رضيع، فلا يخطر على باله أن أهله ألقوه فى البحر لينجو من فرعون، فكيف فاتته هذه المسألة وهو إله ؟ لم يعرفها بألوهيته، ولا عرفها حتى بذكائه وفطْنته.

وإذا كان الكهنة أخبروه بأن ذهاب مُلْكه على يد وليد من هؤلاء الأولاد، وإذا كانت هذه النبوءة صحيحة فلا بُدَّ أن الولد سينجو من القتل ويكبر، ويقضى على مُلْك فرعون، وما دام الأمر كذلك فسوف يقتل فرعون الأولاد غير الذى سيكون ذهاب مُلْكه على يديه.

وتشاء إرادة الله أنْ يتربَّى موسى فى قصر فرعون، وأنْ تأتى إليه أمه السيدة الفقيرة لتعيش معه عيشة الترف والثراء[1]، ويصير موسى بقدرة الله قُرَّة عَيْن للملكة، فانظر إلى هذا التغفيل، تغفيل عقل وطمس على بصيرة فرعون الذى ادَّعى الألوهية.

وبذلك نفهم قول الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال] فقلبه يُغطَّى على بصيرته ويُعمِّيها.

وقوله تعالى لأم موسى: ﴿أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. ﴿٧﴾﴾ [القصص] فمَنْ منَ النساء تقبل إنْ خافت على ولدها أنْ تُلقيه فى اليم ؟ مَنْ ترضى أَنْ تُنجيه من موت مظنون إلى موت محقق ؟ وقد جعل الحق سبحانه عاطفة الأمومة تتلاشى أمام وارد الرحمن الذى أتاها، والذى لا يؤثر فيه وارد الشيطان.

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٨١، ٣٨٢) : « استدعت آسية امرأة الملك أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلاً وهى لا تعرف أنها أمه فى الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت: إن لى بعلاً وأولاداً ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً فى عز وجاه ورزق دارٍّ ».

ثم يهيىء الحق سبحانه كذلك امرأة فرعون ليتم هذا التدبير الإلهى لموسى فتقول ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. ۝٩﴾ [القصص]

فيرد عليها فرعون : بل لك أنت وحدك ، وكأنه يستشعر ما سيحدث ، ولكن إرادة الله لا بُدَّ نافذة ولا بُدَّ أن يأخذ القدر مجراه لا يمنعه شيء ؛ لأن الله تعالى إذا أراد شيئاً فلا رادّ لإرادته .

فمع ما علمه فرعون من أمر الرؤيا أو النبوءة رُبّى الوليد فى بيته ، ولا يخلو الأمر أيضاً من سيطرة المرأة على الرجل فى مثل هذا الموقف .

لذلك النبى ﷺ حينما قُرئت هذه الآية قال : « والذى يُحلف به ، لو قال فرعون كما قالت امرأته ـ قرة عين لى ولك ـ لهداه الله كما هداها »[1] . إنما ردَّ الخير الذى ساقه الله إليه ؛ لذلك أسلمتْ زوجته وماتت على الإيمان .

وهى التى قالت : ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝١١﴾ [التحريم] أما هو فمات على كفره شرَّ ميتة .

وسبق أنْ تكلّمنا فى وحى الله لأم موسى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ۝٧﴾ [القصص] وقلنا : إن الوحى فى عموم اللغة : إعلام بطريق خفى دون أن تبحث عن الموحى ، أو الموحَى إليه ، أو الموحَى به . أما الوَحْى الشرعى فإعلام من الله تعالى لرسوله بمنهج لخَلْقه .

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٥٦٩) عن ابن عباس وعزاه لابن أبى عمر العدنى فى مسنده وعبد بن حميد والنسائى وأبى يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « والذى يُحلف به ، لو أقر فرعون بأن يكون قرة عين له ، كما قالت امرأته لهداه الله به ، كما هدى به امرأته ولكن الله عز وجل حرمه ذلك » .

قال الله تعالى يوحى للملائكة : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢)﴾ [الأنفال]

ويُوحى إلى الرسل : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ..(١٦٣)﴾ [النساء]

ويُوحى للمؤمنين الصادقين فى خدمة رسول : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. (١١١)﴾ [المائدة]

يوحى إلى النحل ، بل وإلى الجماد : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

وقد يكون الإعلام والوحى من الشيطان : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ .. (١٢١)﴾ [الأنعام]

ويكون من الضالين : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. (١١٢)﴾ [الأنعام]

فالوَحْى إلى أم موسى كان وَحْياً من المرتبة الرابعة بطريق النَّفْث فى الروع ، أو الإلهام ، أو برؤيا ، أو بملك يُكلِّمها ، هذا كله يصح .

وهذا الوحى من الله ، وموضوعه ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧)﴾ [القصص] وهذا أمر ﴿وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. (٧)﴾ [القصص] نهى ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص] وهذه بشارة فى خبرين . فهذه الآية إذن جمعتْ لأم موسى أمرين ، ونهيين ، وبشارتين فى إيجاز بليغ مُعْجز .

ومعنى ﴿أَرْضِعِيهِ .. ۝﴾ [القصص] يعنى : مدة أمانك عليه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ .. ۝﴾ [القصص] ولم يقل من أىٍّ شىء ليدلّ على أىّ مخوف تخشاه على وليدها ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. ۝﴾ [القصص] ويراعى الحق سبحانه مشاعر الأم وقلقها على ولدها ، خاصة إذا ألقتْه فى البحر فيطمئنها ﴿وَلَا تَخَافِي .. ۝﴾ [القصص] لأن الله سييسِّر له تربية خيراً من تربيتك فى ظل بيت الغنَى والملْك .

﴿وَلَا تَحْزَنِي .. ۝﴾ [القصص] أى : لفراقه ؛ لأن هذا الفراق سيُعوِّضك ، ويُعوِّض الدنيا كلها خيراً ، حين يقضى على هذا الطاغية ، ويأتى بمنهج الله الذى يحكم خَلْق الله فى الأرض .

ثم اعلمى بعد هذا أن الله رادُّه إليك ، بل وجاعله من المرسلين ، إذن : أنا الذى أحفظه ، ليس من أجلك فحسب ، إنما أيضاً لأن له مهمة عندى .

يقولون : ظلت أم موسى تُرضعه فى بيتها طالما كانت آمنة عليه من أعين فرعون ، إلى أنْ جاءها أحد العسس يفتش البيت فخافت على الولد فلفته فى خرقة ودسته فى فجوة بجوارها ، كانت هذه الفجوة هى الفُرْن ، ألقتْه فيه وهو مسجور[1] دون أن تشعر - يعنى من شدة خوفها عليه - حتى إذا ما انصرف العَسَس ذهبت إليه ، فإذا به سالماً لم يُصبْه سوء . وكأن الله تعالى يريد لها أنْ تطمئن على حفْظ الله له ، وأن وعده الحق .

وقد وردت مسألة وحى الله لأم موسى فى كتاب الله مرتين مما دعا السطحيين من المستشرقين إلى اتهام القرآن بالتكرار الذى

---

(١) سجر التنور يسجره : أوقده وأحماه ، وقيل : أشبع وقوده . [لسان العرب - مادة : سجر] .

لا فائدةَ منه ، وذكروا قوله تعالى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه]

لكن فَرْق بين الوحي الأول والوحي الآخر : الوحي الأول خاص بالرضاعة في مدة الأمان ، أما الآخر فبعد أنْ خافت عليه أوحى إليها لتقذفه في اليم .

وتأمل ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ .. ﴿٣٩﴾﴾ [طه] والقذف إلقاء بقوة ، لا أنْ تضعه بحنان ورفق ؛ لأن عناية الله ستحفظه على أي حال ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. ﴿٣٩﴾﴾ [طه] وهذا أمر من الله تعالى لليمِّ أن يخرج الوليد سالماً إلى الساحل ؛ لذلك لم يأت في هذا الوحي ذِكْر لعملية الرضاعة .

فكأن الوحي الأول جاء تمهيداً لما سيحدث ؛ لتستعد الأم نفسياً لهذا العمل ، ثم جاء الوحي الثاني للممارسة والتنفيذ ، كما تُحدِّث جارك ، وتُحذِّره من اللصوص وتنصحه أنْ يحتاط لهذا الأمر ، فإذا ما دخل الليل حدث فعلاً ما حذّرتَهُ منه فَرُحْت تنادي عليه ليسرع إليهم ويضربهم .

لذلك يختلف أسلوب الكلام في الوحي الأول ، فيأتي رتيباً مطمئناً : ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص] هكذا في نبرة هادئة لأن المقام مقام نصح وتمهيد ، لا مقام أحداث وتنفيذ .

أما الوحي الثاني فيأتي في سرعة ، وبنبرة حادة : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. ﴿٣٩﴾﴾ [طه] فالعَجلة في اللفظ تدلُّ على أن المقام مقام مباشرة للحدث فعلاً .

وفى الأولى قال: ﴿ فَأَلْقِيهِ .. ⦗٧⦘ ﴾ [القصص] ، أما فى الثانية فقال ﴿ فَاقْذِفِيهِ .. ⦗٣٩⦘ ﴾ [طه] والأم لا تقذف وليدها ، بل تضعه بحنان وشفقة ، لكن الوقت هنا ضيِّق لا يتسع لممارسة الحنان والشفقة .

والأمر لليمِّ بأن يلقى التابوت بالساحل له حكمة ؛ لأن العمق موضع للحيوانات البحرية المتوحشة التى يُخاف منها ، أمَّا بالقُرْب من الساحل فلا يوجد إلا صغار الأسماك التى لا خطورة منها ، وكذلك ليكون على مَرْأى العين ، فيطمئن عليه أهله ، ويراه مَنْ ينقذه ليصل إلى البيت الذى قُدِّر له أنْ يتربَّى فيه .

وفعلاً ، وصل التابوت إلى الساحل ، وكان فرعون وزوجته آسية وابنته على الشاطىء ، فلما أُخرج لهم التابوت وجدوا فيه الطفل الرضيع ، وكان موسى عليه السلام أسمر اللون ، مُجعَّد الشعر ، كبير الأنف ، يعنى لم يكُنْ - عليه السلام - جميلاً تنجذب إليه الأنظار ويفرح به مَنْ يراه .

لذلك يمتنُّ الله عليه بقوله : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى .. ⦗٣٩⦘ ﴾ [طه] أى : ليس بذاتك أن يحبك مَنْ يراك إنما بمحبة الله(١) ، لذلك ساعة رأته آسية أحبَّته وانشرح صدرها برؤيته ، فتمسَّكت به رغم معارضة فرعون لذلك .

كما أن ابنة فرعون ، وكانت فتاة مبروصة أصابها البرص(٢) ،

---

(١) وقد ذكر القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٣٧) أن « بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها ، فقالت (لها أم موسى) : لينفعنى حبك اليوم ، فعالجتها ، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ، وارتعش كل مفصل منها ، ودخل حبه قلبها ، ثم قالت : ما جئتك إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون ، ولكنى وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله قط ، فاحفظيه » .

(٢) البرص : مرض جلدى يُحدث بُقعاً بيضاء فى الجلد تُشوِّهه ، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة . [القاموس القويم ١/٦٤] .

ورأت فى الرؤيا أن شفاءها سيكون بشىء يخرج من البحر ، فتأخذ من ريقه ، وتدهن موضع البرص فيشفى ، فلما رأتْ موسى تذكرتْ رؤياها ، فأخذت من ريقه ودهنتْ جلدها ، فشُفِيت فى الحال فتشبثتْ به هى أيضاً .

فاجتمع لموسى محبة الزوجة ، ومحبة البنت ، وهما بالذات أصحاب الكلمة المسموعة لدى فرعون ، بحيث لا يرد لهما طلباً .

وفى انصياع فرعون لرغبة زوجته وابنته وضعفه أمامهما رغم ما يعلم من أمر الطفل دليلٌ على أن الزوجة والأولاد هما نقطة الضعف عند الرجل ، ووسيلة السيطرة على شهامته وحزمه ، والضغط على مراداته .

لذلك يطمئننا الحق ـ تبارك وتعالى ـ على نفسه ، فيقول سبحانه وتعالى ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن]

ذلك لأن الصاحبة غالباً ما تستميل زوجها بوسيلة أو بأخرى ، أما الولد فيدعو الأب إلى الجبْن والخضوع ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يوجد لديه مراكز قوى ، تضغط عليه فى أى شىء ، فهو سبحانه مُنزَّه عن كل نقص .

وحكوا فى دعابات أبى نواس أن أحدهم وسَّطه ليشفع له عند الخليفة هارون الرشيد ، فشفع له أبو نواس ، لكن الخليفة لم يُجِبْه إلى طلبه ، وانتظر الرجل دون جدوى ، ففكر فى وساطة أخرى ، واستشفع بآخر عند زبيدة زوجة الرشيد ، فلما كلَّمته أسرع إلى إجابة الرجل ، وهنا غضب أبو نواس وعاتب صاحبه الرشيد ، لكنه لم يهتم به ، فقال له اسمع إذن :

لَيسَ الشَّفيعُ الذِى يأتيكَ مُؤتزراً مثْلَ الشَّفِيع الذِى يأتِيكَ عُرْيانا

ولهذه العناية الإلهية بموسى عليه السلام نلحظ أنه لما قال له ربه ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤)﴾ [طه] خاف موسى من هذه المهمة ، وكان اسم فرعون فى هذا الوقت يُلقى الرعب فى النفوس ، حتى أن موسى وهارون قالا ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ[1] عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥)﴾ [طه]

لذلك طلب موسى من ربه ما يُعينه على القيام بمهمته : ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾ [طه] فماذا قال له ربه ؟ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧)﴾ [طه]

أى : أُوتيت كل مسئولك ومطلوبك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨)﴾

اللَّقطُ واللُّقطة : أن تجد شيئاً بدون طلب له ، ومنه اللقيط ، وهو الطفل الرضيع تجده فى الطريق دون قَصْد منك ، أو بحث . وكذلك كان الأمر مع التابوت ، فقد جاء آلَ فرعون وهم جلوس لم يَسْعَوْا

(١) فرط على القوم : ظلمهم وجاوز الحد فى الحكم . قال تعالى عن موسى وهارون ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥)﴾ [طه] يظلمنا فرعون ويتعدَّى علينا . [القاموس القويم ٧٧/٢] .